12 معادلة يفهمها الرجال

من ظواهر تاريخ الدعاة أنك تجد جمهرتهم العظمى قد عملت وبذلت للدعوة الإسلامية الشيء الكثير بصمت وسكون، وشغلهم الانغماس في العمل اليومي والتربوي والتجميعي عن تدوين كثير مما تكشف لهم من فقه الدعوة الذوقي والتجريبي، وقليل هم أولئك الذين حبوا الدعاة بتدوين وشروح.

لكنك أيضًا، بإزاء هذه الظاهرة، تجد أن الله سبحانه يلهمهم بلاغة وفصاحة غير اعتيادية، يتاح لهم بها أن يوجزوا ويجمعوا مذهبهم في الدعوة في بضع كلمات قليلات تكون لأجيال الدعاة الآتية من بعدهم أصلا فقهيا مهما، ومعلما بارزًا من معالم الطريق، ويكون قائلها أستاذًا في الدعوة.

قد لا تتعدى كلماتهم الأسطر، لكنها تكتسب أهميتها من كونها تقيم علاقة وارتباطًا بين جزئيات إسلامية على وجه يضخم حجم هذه الجزئيات تضخيمًا تغدو به عظيمة الأثر.

مثلما في ذلك مثل الأعداد المجردة، ليست تحمل من القيمة المجردة إلا قليلا، ثم أتى علماء الرياضيات وتمكنوا من إقامة إشكال من العلاقات المختلفة بين هذه الأعداد في معادلات رياضية كشفت لهم أسرار الطاقات واستخدامها، حتى أن آينشتين قد كشف على الورق المجرد، بالقلم المجرد، في أرقام مجردة، سر الطاقة الذرية، وكيفية إخراجها من مكمنها إلى مجالات الاستخدام.

وكذلك هؤلاء الدعاة، أقاموا أشكالا من العلاقات بين الآداب والأوامر الإسلامية كشفت عن درب واسع لمن يريد أن يسير، وحددت العوامل الحاسمة ونقاط التأثير، ودللت على ما منحهم الله -تعالى- من عميق الوعي، وما اكتسبوه من طويل التجربة.

ولكن كما أن معادلات الأرقام لا يفهمها إلا رياضي تأمل وحلل، فإن معادلات الدعوة لا يفهمها، ولا يدرك قيمتها إلا داعية ذاق وتحمل، ويظل بمنأى عنها وعن فقهها من قبع وتعلل.

إنكار المنكر دليل الفراسة

من هؤلاء الدعاة لبيب من الفحول، تدل المعادلة التي وضعها على كمال عقله، ونفاذ بصره، لكنه مغمور مجهول، اسمه أبو بكر بن يزداينار، /.

سئل عن الفراسة الإيمانية ما هي؟ فقال:

(نظر الصالح، بالصلاح الذي فيه نور التقى والإيمان والحقائق والصدق، بالزهد في الدنيا، والرغبة في العقبة، فينكر على أهل المنكر منكرهم).

فانظر المعنى الكبير في هذا المتن الصغير.

فهو قد جعل الفراسة شدة يقين الداعي إلى الله بثوابه يوم القيامة، ومعرفته تفاهة هذه اللذات الدنيوية المحدودة المقطوعة الممنوعة، فيحمل نفسه على تغيير المنكر، ومنازعة أهل المنكر بشجاعة يمدها إياه هذا اليقين.

ووالله إنها لفراسة عالية تصغر عندها كل فراسة أخرى مهما كانت صادقة.

وانظر العناصر الأربعة التي تجتمع فتكون الصلاح الذي يدفع بصاحبه إلى صيحة الحق.

تقوى: تلبي الأمر، وتقف عند الشبهة.

وإيمان: يرى به من اليقين الأخروي ما يحجب عن أموات القلوب.

وحقائق: يعيش معها صاحبها حياة الواقع، لا أوهام الدنيا القصيرة الزائلة.

وصدق القلب في ظنه، واللسان في نطقه.

وانظر دقة اتجاه إنكاره وشموله.

إنه لا ينكر المنكر فحسب، بل ينكر على أهل المنكر منكرهم.

أي أنه لا يعرف التعميم، ولا التورية.

إنه يمد إصبعه يشير إلى الطاغوت بالاتهام، ويرفع صوت يعلن فضيحة الكفر الذي أمامه، باسمه، ورقمه وعنوانه، ثم لا تلبث الإصبع الواحدة حتى تنفتح معها بقية الخمس، فتكون يد التغيير من بعد إصبع الاتهام.

ثم انظر الربط الرائع بين المقدمات الست في طرف المعادلة الأول، وبين التخصيص في الطرف الثاني ينكشف لك طريق استخدام الطاقة الإسلامية في الحياة البشرية وإسالتها من ينبوعها لتروي ظمأ المتعطشين.

إنها طاقات كالطاقات.

إنها مثل الضوء، والحرارة، والكهرباء. وكما خلق الله - هذه الطاقات في الكون، وأتاح من علماء الرياضيات والفيزياء من يكشف أسرارها، ويذللها لخدمة الإنسان، فإنه -سبحانه- أنزل أيضا هذا القرآن، وجعله من مكملات سنن الكون، وأتاح من الدعاة من يكشف أسراره.

وكما يعهد الرياضي إلى المختبرات والمصانع أن تترجم معادلات وتصميماته إلى أجهزة توضع في الاستخدام، فإن فقهاء الدعوة، من مثل أبي بكر بن يزداينار هذا، يعهدون إلى الحركات المنظمة أن تترجم معادلاتهم إلى عمليات تصحيحية لتخبطات الإنسان.

ومن هنا تنكشف أهمية البحوث في فقه الدعوة، وما ينبني عليها من تخطيط حركي.

إن دور فقه الدعوة دوما أن يضع الوصف الصحيح، باللفظ الصريح، للعمل الفصيح.

روعة الفقه الحركي تكمن في الأمانة والاجتهاد

ومثلما لا يليق بعلماء الذرة الآن أن يتطاولوا على أرخميدس وفيثاغورس وغيرهم من قدماء علماء اليونان، لما نجده من تقارب قوة وأهمية معادلات أولئك ومعادلات هؤلاء في دفع عجلة العلم، وأن كلًّا من الجمهرتين أتت رائعا بديعا في عصرها، فإنه لا يليق أيضا بالمتأخر ممن يفتش للدعوة الإسلامية عن معادلاتها الجديدة أن يتطاول على من سلف من فقهاء الأمة وقادة الدعوة، ولا أن يتنكر لهم، ولا أن يدلس على من يخاطبهم، بل يجب عليه أن يكون وفيا أمينا، فيذكر نص حروفهم؛ حيث أغنت وكفت للتعبير عما يريد، ويكون له دور الإحياء، والربط، والتحليل، وإبراز المهم، وشرحه، وبيان حصول الإجماع فيما أجمعوا عليه. والأسطر الخفية المنسية إن أرجعها الباحث إلى ميدان التداول، وأوقع الأبصار عليها، وفتح أبواب القلوب إليها، فكأنما أحياها من بعد موت، واصطادها من بعد فوت.

وواجب المتفقه أن ينتبه لمثل هذا السمت الواجب لبحوث الدعوة، فلا يضيق صدرًا بالنقول، بطرا وترفا، ولا يسأم تكرر المراجع، فإن الفقه منحة الوهاب، حبا به قوما قليلين.

وأثناء ذلك، لا تخف الاجتهاد والرأي الجديد، فإن فقه الدعوة لا ينمو إن حرصت على التعميم الذي يبقيك في دائرة ما لا خلاف فيه، ولكن تصلب في منهج البحث لا تتسامح فيه، واحرص على الأصول لا تدع مستعجل السير أو هياب الصراع أن يتلاعب فيها، فيخرج إلى نوع تهور أو تخذيل، ولا من استفزه الرعاع أن يسارع إلى تكفير.

ويعجبني جدًّا في هذا المجال استعراض داعية في مجلة (**المجتمع**) لدور سيد قطب في توضيح وتحديد المنهج التربوي الحركي، ودور عبد القادر عودة في تحديد المنهج التشريعي، من بعد اليقظة التي أوجدها الإمام البنا في تعميماته ومهد لهما بها، والتثبيت الذي قام به الهضيبي بصلابته في موقفه، ثم استعراضه لما يصاحب كل توضيح، وتحديد، وتفصيل من اختلاف اجتهادي بدافع الحرص، والإخلاص، والاستجابة للواقع المتغير، ودور الإجماع دائمًا في حل الخلاف. وختم كلامه بأن تساءل: (**ترى، أتعود الحركة إلى التبسيط والتعميم خروجًا من المتاعب وأمانة من المخاوف، أم تمضي- شوطًا أبعد في التفصيل وتتحمل ضريبة هذا التقدم والانتشار؟؟**)[1]، وهو تساؤل يكمن خلفه وعي صحيح لدور بحوث فقه الدعوة في تقدم الدعوة حتى وإن ردت بعض اجتهادات الباحثين من بعد.

فإن لم تقدم هذه البحوث اجتهادًا جديدًا فإنها لا تخلو من تعبير يزيد الوضوح، أو اصطلاح يخصص الدلالة، أو فتوى فقيه قديم مهاب يبين أصل ما نظنه جديدًا، أو –على الأقل– تقريب اجتهاد الآخرين، بالإقرار والموافقة، من تناوش الإجماع.

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية، العدد ١١٥، ص١١.

وحين تصدأ القلوب، وتتعكر النفوس، وتبرد الهمم، يكون ما تحمله هذه البحوث في ثناياها من قصص الحماسة، ومجاز الخطاب، ومنظوم الألفاظ، نعم العلاج اللطيف، فيه التجلية، والترقيق، والتصفية، والإشعال.

نبدأ بالمنكر الأكبر

وهو المنكر الأكبر يعنونه في كلامهم.

منكر الحكم بغير الإسلام.

(إن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولا إلى الأمر بالمعروف الأكبر، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه، وتحقيق قيام المجتمع المسلم.

والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهي عن المنكر الأكبر، وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس عن طريق حكمهم بغير شريعة الله. والذين آمنوا بمحمد ﷺ هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة، فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي، ولم ينفقوا قط جهدهم، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يدرك وفق مقتضى الواقع، فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم) [1].

لا يعني ذلك أن يمتنع الدعاة عن تعليم أنفسهم وتعليم من معهم آداب الإسلام وأحكام العبادات، ولا النهي عن منكر فرعي يمكن إزالته بهذا

---

(١) في ظلال القرآن ١١/ ٥٠.

النهي، لكنها دعوة واضحة لعدم خداع النفس وتلهيتها بالاكتفاء بالنهي عن المنكرات الصغيرة والعزوف عن منكر الحكم بغير الإسلام، والقناعة برتبة الوعظ في مباحث إزالة النجاسة وسجود السهو دون الجهر بالحق، والإشارة إلى الطاغوت، وتجميع المسلمين، وتربيتهم، وتنسيق جهودهم وتوجيهها للنهضة الشاملة.

لقد أرسل الله –تعالى– نبيه ﷺ ليحرر الناس، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] ، وإنها أغلال أي أغلال، ثم أعاد اليهود هذه الإنسانية إلى عذابها وأغلالها مرة أخرى بهذه الأحزاب التي زرعوها في كل مكان. ولابد أن تقوم نهضة إسلامية لتضع هذه الأغلال عن المغلولين، وترفع هذا الحرج والضيق الذي يرهق أبناء المسلمين.

(إنه الأمر الهائل العظيم: أمر رقاب الناس، أمر حياتهم ومماتهم، أمر سعادتهم وشقائهم، أمر ثوابهم وعقابهم، أمر هذه البشرية، التي إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة، وإما ألّا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربها، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف التبليغ فلم يبلغ.

فأما رسل الله عليهم الصلاة والسلام فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها –مع هذا– قدوة ممثلة في العمل، وجهادًا مضنيا بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك، وضلالات تزين، أو كانت قوة طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم، كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين.

وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على المؤمنين برسالته، فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده ﷺ وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة –تبعة إقامة حجة الله على الناس، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة، وشقوة الدنيا– إلا بالتبليغ والأداء، على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله ﷺ وأدى. فالرسالة هي الرسالة، والناس هم الناس، وهناك ضلالات، وأهواء وشبهات، وشهوات، وهناك قوى عاتية طاغية تقوى دون الناس، ودون الدعوة، وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل، وبالقوة.

الموقف هو الموقف، والعقبات هي العقبات، والناس هم الناس، ولابد من بلاغ، ولابد من أداء؛ بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة لما يبلغون.

إنه الأمر المفروض الذي لا حيلة في النكوص عن حمله، وإلا فهي التبعة الثقيلة، تبعة ضلالة البشرية كلها، وشقوتها في هذه الدنيا، وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة، وحمل التبعة في هذا كله، وعدم النجاة من النار.

فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعية؟ وهي تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائض وتهز المفاصل؟) [1]

هو شأن الرجال

فكذلك هو الأمر الواقع.

الإسلام هو الإسلام، لا زال مستعدًّا أن ينهي شقاء البشر، ولكن تبليغ هذا الإسلام والقيام به هو الذي ضعف، ولذلك (**كان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دين لو أن له رجالا**) [2]

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣١.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٣٠٢.

الرجال الذين هم بمستوى هذا الإسلام في شموله.

وهذا الواحد المتأسف إنما كان في عصر السلف، أي أنه كان يرى أمامه جحافل فقهاء الفروع، وجحافل الزهاد، لكنهم لم يكونوا ليملئوا نظره.

كان يريد آخرين، الفقه والزهد من صفاتهم، لكن يذهبون إلى مرحلة أبعد.. يريدهم دعاة، همهم هداية الخلق، وإنفاذ حكم الله، والإنكار على من يحكم الناس بهواه، وهي مرحلة لا يبلغها إلا من أوتي من أخلاق الرجولة مقدارًا، ويأنف من كان رجلا أن يقف دونها، مهادنا ومصالحًا، أو مكتفيا بالتوريات، وذلك لما قيل لأحد فحول الرجال: **(لنا حويجة)**، تصغير حاجة، أي: جئناك تقضيها لنا، أبى وقال:

(اطلبوا لها رُجَيلا) [1].

فالرجيل تشبع نفسه بعمل اليسير.

أما هو فهمته عالية، فقد رصد نفسه لضخام الأعمال، ويأنف من صغارها.

وإن هذه الدعوة والله لهي شأن الرجال حقا، الذين يضم سربهم كل مقدام.

أما أهل الحذر والهلع من الصدام وعقباته، فليس فيهم إلا رويجل.

فعند الرجال، لا يكون الخوف إلا من الغفلة، كما قال العمري الزاهد:

(إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن الله، أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه، ولا تأمر فيه ولا تنهى عنه، خوفا ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعا) [2].

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي/ ٢٥١ طبعة الغزالي.

(٢) الجواب الكافي لابن القيم/ ٤٤.

فمن ثم كان ابن تيمية يكثر تقريع الخائفين من الصالحين، وبين مرارا أن: (هؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

فتدبر هذا، فإنه كثيرًا ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران، بغض الكفر وأهله، وبغض الفجور وأهله، وبغض نهيهم وجهادهم، كما يحب المعروف وأهله ولا يحب أن يأمر به ولا يجاهد عليه بالنفس والمال، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحُجرات:١٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤][1].

وربما تظن أنك بحاجة إلى مزيد نقاش مع مثل هؤلاء المفرطين، لكن يوسف القرضاوي قد سبق وجادل، وحج وفند، ببلاغة وجمال لفظ، فكفاك...

قالوا: السعادة في السكون ... وفي الخمول وفي الخمود
في العيش بين الأهل لا ... عيش المهاجر والطريد
في المشي خلف الركب في ... دعة وفي خطو وئيد
في أن تقول كما يقال ... فلا اعتراض ولا ردود
في أن تسير مع القطيع ... وأن تقاد ولا تقود

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٤٠.

في أن تصـــــيح لكـــــل وال ... عـــــاش عهـــــدكم المجيـــــد
قلـــت: الحيـــاة هـــي التحـــرك ... لا الســـــكون ولا الهمـــــود
وهـــي الجهـــاد، وهـــل يجـــا ... هـــد مـــن تعلـــق بـــالقعود؟
وهـــي التلـــذذ بالمتاعـــــب ... لا التلـــــــذذ بـــــــالرقود
هـــي أن تـــذود عـــن الحيـــاض ... وأي حـــــــر لا يـــــــذود؟
هـــي أن تحـــس بـــأن كـــأس ... الـــذل مـــن مـــاء صـــديد
هـــي أن تعـــيش خليفـــــة ... في الأرض شـــأنك أن تســـود
وتقـــول: لا، ونعـــم، إذا مـــا ... شـــئت في بصرـــ حديـــد

* * *